فلسفة الغزالى

للأستاذ حامد عبد القادر

المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية

ربط هذا المقال بالمقال السابق — وصف مختصر لحياة الغزالى العقلية — أهم مصدر معرفتنا بتطور حياته العلمية — كتاب المنقذ من الضلال — أطوار حياته العقلية — دواعى اشتغاله بالفلسفة — مصدر آرائه الفلسفية — الغرض من ابحاثه الفلسفية

١ لعلك تذكر ما كتبناه فى مقال سابق عن تاريخ حياة الغزالى، وما ذكرناه من وصف الظروف التى كانت تحدق به، لاسيما الظروف السياسية والاجتماعية، وانك لو تصفحت ماذكرناه عن تاريخ حياة الرجل لوصلت الى نتيجة حاسمة واضحة، تلك هى أن حياته كانت حياة تقلب وتطور وجد ونشاط عقلى مستمر. ولنبين لك بالاضافة الى ذلك أن أطوار تلك العقلية الجبارة، تكاد تنحصر فى ستة أطوار من السهل تسميتها وتحديدها ولو بالتقريب

٢ وقبل أن أورد عليك تلك الاطوار، أود أن أذكر لك أن الفضل فى معرفتها يرجع إلى الغزالى نفسه، وأننا لو حاولنا، مهما حاولنا أن نصور لك عقليته الفذة، ونصف لك نشاطه الخارج عن العادة، لما أمكننا أن نأتى بمثل ما أتى به. ذلك لغرابة حياته وتلوى نواحيها وغزارة انتاجه العقلى

ولعله قد أدرك وعورة المسلك وتبين له تشعب نواحيه فأراد أن يوفر على الناس ألم البحث ومشقة التنقيب فكشف لنا الغطاء عن أسرار حياته، وأزال لنا النقاب عما خفى من عقليته

ولقد جمع ذلك كله فى سفر واحد صغير الحجم، جليل القدر، قليل المبنى، غزير المعنى، أعنى ذلك الكتيب المسمى (بالمنقذ من الضلال) والذى له من اسمه نصيب وأى نصيب

اقرأ هذا الكتاب، ثم اقرأه تعثر فيه كل مرة تقرؤه على درر ثمينة ولآلىء مكنونة، وتجده وحيداً فى بابه، فانه من النوع الذى يسميه الاوربيون Autobiography ومعناه ترجمة الانسان لنفسه بنفسه، ولم نعلم فيما نعلم، أن أحداً من العلماء أو الفلاسفة من المسلمين دوّن تاريخ حياته ووصف تطوره العقلى بالطريقة التى اتبعها الغزالى فى هذا الكتاب

فمن المفيد جداً لمن يود الاحاطة بأطوار حياة الغزالى، أن يقرأ هذا الكتاب ليتأكد من صحة ما أقول

٣ وأطوار حياة الغزالى الستة المشار اليها هى :

(١) الاعداد والتكوين (٢) الاشتغال بالتأليف والتدريس (٣) التشكك (٤) الاشتغال بالفلسفة والتصدى للفلاسفة (٥) الاضطراب والمرض العقلى والعزلة (٦) التصوف

أما الاطوار الثلاثة الاولى وكذلك الخامس فقد ذكرنا عنها فى المقال السابق ما يكفى ، وأما السادس فسنتكلم عنه إن شاء الله تعالى فى مقال آخر ، فلم يبق علينا الآن إلا أن نبحث فى الامر الرابع ، وهو الغرض الاساسى من هذا المقال ، أى الكلام على فلسفة الغزالى

٤ وانما دعا الغزالى للاشتغال بالفلسفة أسباب أهمها :

ـ ١ ـ رغبة صادقة فى حل المشكلات التى عرضت له ، فانه لما وقع فى حيرة من أمره ، وأدركه الشك فى عقائده ، ظن أنه لاخلاص له من هذا المأزق الا بتعلم الفلسفة ، عله يجد فيها ما يشفى العلة ، وينقع الغلة ، ويبدد سحب الشكوك والاوهام

ولكن ربما نسأل كيف نشأ هذا الشك والغزالى قد تربى تربية صوفية دينية ، مثل كثير غيره من أبناء عصره ؟ سؤال جيد لا أقدر على الاجابة عليه بأحسن مما حكاه الغزالى عن نفسه حيث يقول :

« ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً الا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأترصد مايرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته »

« وقد كان التعطش الى إدراك حقائق الامور دأبى وديدنى ، من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهدى بسن الصبا »(١)

(١) أنظر المنقذ من الضلال ص ٣ طبع مطبعة الجمالية سنة ١٣٢٩

فعدم ميله إلى التقليد وسعة اطلاعه ، وغزارة علمه بالمذاهب المختلفة المتضاربة فى مبادئها وعقائدها . كل هذه أفضت به الى التشكك حتى فى الحسيات [1] والضروريات وهذا التشكك حمله على التوسع فى البحث والاستزادة من الاطلاع

ـ ب ـ ولما توسع فى البحث وفهم آراء الفلاسفة ووقف على مقاصدهم ، وتبين له فساد عقائدهم عن له أن يتصدى لبيان ما فيها من خطأ فاحش ، ولكنه قبل أن يخطو هذه الخطوة رأى من الواجب عليه نحو نفسه أن يتثبت من أقوال الفلاسفة حق التثبت ، ويعرف براهينهم وحججهم حق المعرفة ، ليكون قادراً على مناهضة خصومه وقرع حججهم بمثلها

ولم يقف به الامر عند هـذا الحد بل انه ارتأى أن يؤلف المؤلفات فى مبادئ الفلاسفة وعقائدهم ، حسبما يقررونها كى يوفر على القارئ مشقة الرجوع إلى كتبهم

وأشهر ما ألفه فى هذا الغرض كتاب « مقاصد الفلاسفة » وموضوع هذا الكتاب والغرض من تأليفه يظهر مما ذكره الامام الغزالى نفسه فى مقدمته حيث يقول :

« أما بعـد فانى التمست كلاماً شافياً فى الكشف عن تهافت الفلاسفة وتناقض آرائهم ، ومكامن تلبيسهم واغوائهم ، ولا مطمع فى اسعافك الا بعـد تعريفك مذهبهم ، واعلامك معتقدهم ، فان الوقوف على فساد المذاهب قبل الاحاطة بمداركها محال ، بل هو رمى فى العماية والضلال ، فرأيت أن أقدم على بيان تهافتهم كلاماً وجيزاً مشتملا على حكاية مقاصـدهم من علومهم المنطقية ، والطبيعية ، والالهية ، من غير تمييز بين الحق والباطل . بل لا أقصد الا تفهيم غاية كلامهم من غير تطويل بذكر ما يجرى مجرى الحشو والزوائد الخارجة عن المقاصد ، وأورده على سبيل الاقتصاص والحكاية مقروناً بما اعتقـدوه أدلة لهم ومقصود الكتاب حكاية (مقاصد الفلاسفة) وهو اسمه »[2]

ومن ذلك ترى أن ما ذكره الغزالى فى هذا الكتاب لا يؤخذ حجة عليه ، ولا يعتبر مصوراً لعقائده الفلسفية

ـ ج ـ ولقد كان لروح العصر أثر كبير فى تكوين عقليـة الغزالى وفى قيامه بتلك الحملة العنيفة التى قام بها ضد الفلاسفة

فالعصر كان عصر النفوذ التركى ، والنفوذ التركى كان يصحبه دائماً تغلب المذهب السنى على

(١) المنقذ ص ٤ ، ٥ ، ٦ (٢) أنظر مقاصد الفلاسفة ص ٢ ، ٣

غيره من المذاهب الشيعية والاعتزالية ويصحبه تبعاً لذلك الخروج على الفلسفة وعلى الفلاسفة

ـ د ـ ولا أكاد أشك فى أن اتصال الغزالى بنظام الملك كان من الظروف التى شجعت الغزالى على المضى فى الطريق التى سلكها . إذ أن نظام الملك كان متعصباً للسنة والسنيين تعصباً أودى بحياته إذ أنه قتل بطعنة طعنها إياه أحد الحشاشين الذين هم احدى الطوائف الشيعية الاسماعلية

فلولا قيام الدولة السلجوقية ووجود نظام الملك فى الوزارة لما تسنى للغزالى أن يجاهر بآرائه المضادة لآراء الفلاسفة . ولما كان من السهل عليه أن يظهر فى المجتمعات والأندية ويتغلب على المنتمين الى المذاهب المعادية للمذهب الاشعرى

ومن يمكنه أن يجزم بأن الغزالى لو تقدم به الزمان وظهر فى عصر البويهيين والسامانيين لسلك ذلك المسلك الذى سلكه فى عصر السلجوقيين

فأنت ترى أن البيئة السياسية كان لها أثر كبير فى عقلية الغزالى على العموم وفى اشتغاله بالفلسفة على الخصوص

ـ هـ ـ على أن اضطراب الامور الاجتماعية فى ذلك العصر ، وإقبال الناس على الدنيا وزخرفها وكثرة الالحاد والزندقة وتكوين الجمعيات السرية الفلسفية وغيرها المعادية للمذهب السنى وظهور طوائف الباطنية وعلى الاخص طائفة الفدائيين « الحشاشين » الذين كانوا يتخذون كل مايمكنهم من وسائل الارهاب والسفسطة لقتل زعماء السنيين من الخلفاء والوزراء وغيرهم وللقضاء على المذهب السنى — أقول كل هذه الامور لابد أن تكون قد أوجدت فى نفس الغزالى حمية دينية ، فاختار لنفسه مركز المصلح الدينى ، فنهض نهضة مباركة ، وقام ينعى على الناس ضلالهم ويدعوهم إلى اتباع مذهبه الذى يقرب أن يكون المذهب الرسمى للدولة

ولم يكن فى نعيه هذا ولا فى دعوته تلك (دجماتياً) بل انه كان يقرع الحجة بمثلها ويحارب خصومه بنفس السلاح الذى سلحوه به أيام أن كان جندياً من جنودهم أعنى سلاح المنطق والجدل الذى أخذه عن الفلاسفة أنفسهم

فهو فى حملته هذه يذكرنا بالامام أبى الحسن الأشعرى (٢٦٠ — ٣٢٠) الذى نشأ معتزليا ولكنه لم يلبث أن خرج على أستاذه أبى على الجبائى ، واعتزل مذهب المعتزلة ورجع الى مذهب أهل السنة ، وأسس المذهب المنسوب اليه وأخذ يدحض حجج حلفائه السابقين متبعاً فى ذلك الطريقة التى أخذها عنهم أى طريقة المنطق والجدل

٥ كل هذه الأسباب السابقة حملت الغزالى على أن يقوم بكل ما لديه من عزم وحزم، على تعلم الفلسفة، وقد بحث فوجد أن أصح مذاهب الفلاسفة ما نقله الفارابى وابن سينا عن ارسطاطاليس. وعن الفارابى وابن سينا يقول الغزالى «على أنه لم يقم بنقل علم ارسطاطاليس أحد من المتفلسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم، ومالا يفهم، كيف يرد أو يقبل» (١)

ومع أن الغزالى يعد «هذين الرجلين» أصح فلاسفة المسلمين نقلا عن ارسطاطاليس فاننا نجده، يميل الى فلسفة ابن سينا وينقل عنه كثيرا ولعل ذلك لأن ابن سينا قد ترك لنا مؤلفات عدة فى الفلسفة يمكن الرجوع اليها ولأنه كان أكثر ابتكارا وأوضح لفظا ومعنى من الفارابى :—

والذى يظهر أن جل كتاب «مقاصد الفلاسفة» إن لم يكن كله مأخوذ عن كتاب (النجاة) الذى اختصر فيه ابن سينا كتابه الأكبر المسمى (الشفاء) يدلك على ذلك تشابه الكتابين فى الموضوع والترتيب وطرق التعبير. فالخلاصة أن الغزالى يعنى بالفلاسفة فى الغالب الفارابى وابن سينا وعلى الأخص الثانى منهما

٦ ثم إن الغزالى بعد أن يحيط بالعلوم الفلسفية ويعرف مذاهب الطوائف المختلفة التى كانت معاصرة له، يأخذ على عاتقه القيام بعمل آخر أشق وأشد حاجة الى عقلية جبارة، وبحث عميق ذلك هو التصدى لهؤلاء كلهم، والتمييز بين حقهم وباطلهم، ومعرفة الغث من السمين من أفكارهم وبيان تضارب آرائهم وتناقض معتقداتهم. ثم وضع فلسفة يقبلها العقل ولا تعارض الشرع وهذا العمل يشمل :—

أولا : بيان الحقائق العلمية الفلسفية التى لا تعارض الشرع فى شىء

ثانياً : بيان أن العقل البشرى والفكر الانسانى وحده ليس كافيا للوصول الى معرفة الحقائق الالهية، بل لابد من حجة أقوى من حجة العقل فى ذلك، وهذه هى الحجة الشرعية التى تصل الينا من الله تعالى على لسان أنبيائه وأوليائه

ثالثاً : الكلام على عقائد الفلاسفة الفاسدة واقامة الأدلة القاطعة على بطلانها

رابعاً : وضع نظام فلسفى نظرى عملى مادى روحى دنيوى أخروى يكون أساسه

(١) المنقذ ص ١٢

الاحكام الدينية . ولا يكون مخالفا لقواعد المنطق السليم ، والبحث فى الامور الثلاثة الأولى لايصح أن يسمى فلسفة الغزالى إلا من باب التسامح . أما فى الامر الرابع فتتجلى عقلية الغزالى بأجلى مظاهرها وتظهر للعالم عبقريته وآثار روحه الفياض ، ومقدرته على الابتكار ، واتمتعازه من التقليد. وهنا يحاول الغزالى ربط العلم بالعمل ، ويبين علاقة المادة بالروح ، ويظهر التوافق بين العقل والدين. ذلك التوافق الذى كان دائماً يرمى اليه ويجعله نصب عينيه

ويرى كثير من فلاسفة الغرب انه قد نجح الى أقصى حد ممكن فى هذه المحاولة ، وأنه قد وصل فى تعاليمه الى منزلة تكاد تقرب من منزلة الاعجاز . وإنا على كل حال نرى أن الاغراض الاربعة السابقة هى أغراض الغزالى من الاشتغال بالفلسفة . وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله للكلام على كل منها ؟

حامد عبد القادر

تطور الفلسفة الى ماقبل عهد سقراط

للأستاذ نجيب محفوظ

كان هم الانسان فى عهده الاول مقصوراً على الاشياء المحيطة به ، والتى يرجو من ورائها فائدة ما لحياته ، وكانت مهارته تتجلى فى التقليد والمحاكاة ، والرقص والصياح ، ولكن مرت به أجيال طويلة تعلم فى أثنائها لغة يتخاطب بها ، ولما كانت اللغة أداة التفكير فقد ابتدأ يفكر تفكيراً هو أقرب للتأملات والأوهام فسر به حياته ومماته ، ومخاوفه الكثيرة التى يراها فى الوحوش الكاسرة ، ويسمعها فى الرعود والصواعق ، والتى تزعجه فى أحلامه ، وفى هذه التفسيرات البدائية نجد بذرة الفلسفة الأولى التى نمت فى العصور المختلفة ، وتدرجت تدرجاً مستمراً ، يبين لنا الأدوار المختلفة التى مر بها التفكير الانسانى ، فتاريخ الفلسفة فى الواقع هو تاريخ العقل البشرى نفسه

ونحن نتكلم الآن عن الفلسفة الاغريقية التى سبقت عهد سقراط ، لأنها توضح نوعاً من التفكير يبتدئ ساذجاً بسيطاً ، ثم يعلو شيئاً فشيئاً إلى التفكير العلمى المبنى على القواعد والبراهين ، وليس مهما لدينا معرفة ما إذا كانت هذه الفلسفة قد جاءت عبقرية دون أن تتأثر بتيار أجنبى أم أنها تكملة لفلسفة أخرى ظهرت فى بلد آخر كفارس مثلا ، لان العقلية الانسانية فى تطورها تصعد درجات واحدة ، وعليه فالفلسفة التى ندرسها الآن يصح أن نعتبرها